الأستاذة: د. أمينة أونيس
كلية الآداب واللّغات
قسم اللّغة والأدب العربي
السنة الدراسية: 2023/2022.
السداسي الأوّل

المادة: التجريب في الأدب الجزائري المعاصر
(محاضرة)
الاختصاص: الأدب العربي الحديث والمعاصر.
السنة: الثانية ماستر.
الأفواج: 01 + 02 + 03 + 04.

محاضرة رقم: 04

السلطة الدينية والأدب الجزائري

- أوّلا: الشعر الديني الجزائري المعاصر:

انتشرت المساجد والزوايا قبل الاحتلال الفرنسي في جميع أنحاء البلاد يتلقى فيها الفرد ثقافته العربية الإسلامية .ولما جاء الاستعمار تيّقن أن العلم سيف قاطع إذ تسلح به الجزائريون أمكنهم أن يقاومه، فسعى حينئذ للتجهيل فكان شغله الشاغل إفناء العنصر الإسلامي .ففرنسا كانت تخشى على مشروعها الاستدماري في حقيقته والحضاري في لباسه، فأخذت تضرب جذور العقيدة الإسلامية فحولت المساجد إلى كنائس وأدخلت اللغة الفرنسية المراحل التدريس واعتبارها لغة إجبارية قبل اللغة العربية التي أصبحت لغة اختيارية أو ثانوية.

لكن الشعب الجزائري لم يستكن لهذه الوضعية بل قاوم وعارض هذه السياسة وتصدى لذلك بشتى الطرق، ومن بين هذه الطرق تأسيس النوادي والجمعيات التي على رأسها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين .تأسست هذه الجمعية في الساعة الثامنة صباح يوم الثلاثاء السابع عشر من ذي الحجة عام 1931 م .اجتمع بنادي الترقي اثنا وسبعون من علماء القطر الجزائري وطلبه العلم إجابة لدعوة خاصة من لجنة تأسيسية متألفة من جماعة فضلاء العاصمة وعميدها السيد عمر إسماعيل وكان غرض هذا الاجتماع تحقيق فكرة تأسيس جمعية العلماء المسلمين .الجزائريين وقد لبى الدعوة بالقبول والاعتذار نحو خمسين عالما .

إن كل من يتتبع الشعر الجزائري بوصفه واقعا فكر يا وفنيا يرجّح أن تكون الحركة الإصلاحية التي عرفتها البلاد في عهد الاستعمار، في الربع الأول من القرن الماضي وعلى طول امتدادها هي المسار الحقيقي للشعر من حيث مبناه على وجه الخصوص . فالشعر في ظلها استطاع أن يعيش اللحظة والواقع بصفة عامة، فكشف عن نوايا المستعمر المستبد، وتتبع سير أعماله وفضحها، كما وقف بالمرصاد للانحراف الديني الذي ساد فترة الاستعمار.

وطبيعي جدا أن يرتبط الشعر بفكرة الإصلاح في هذا الظرف العصيب هذا، إذا عرفنا حقيقة الشعر من جهة، وإذا سلمّنا بواقع البلاد الذي كان بحاجة إلى التغيير والإصلاح من جهة ثانية، ومن هنا اتجه الشعر إلى التركيز على فكرة الأحياء وكانت النظرة فيه سلفية تتجه إلى الماضي الذي يمثل النموذج المحتذى.

وفي ظل هذه الحركة بعث الشعر الجزائري، حيث أخرج من سطحية الفكرة إلى عمقها، ومن جمودها إلى حركتها .ولعل أبرز منحى سلكه الشعر في هذه الفترة هو الاتجاه الديني، وما يفسر لنا هذا، عدة أمور منها:

أولا :حركة الإصلاح وربط حاضر الأمة بماضيها، وهي تعد نقطة تحول بارزة في تاريخ الجزائر الفكري والفني.

ثانيا :الوقوف عند السيرورة التاريخية، أي أنّ الصراع الذي قام بين حركة الإصلاح وفلسفة الاستعمار الصليبي(فرنسا)صراع ديني قائم على الخداع قبل أن يكون حربا استعمارية" وقد كان هذا الخداع حتى لا تتحرك العاطفة الدينية عند المسلمين، فهبوا للدفاع عن دينهم لأنه من مصلحة النصارى ألا يفهم المسلمون هذه الحقيقة وليدافع المسلمون عن وطنهم كما يشاءون.

ثالثا :الانخراط شبه الكلي لشعراء ما قبل الثورة في الحركة الإصلاحية والشاعر في هذه الآونة كان بصدد تطبيق وتبليغ رسالة سماو ية، حيث حارب العدو وأعلن رفضه، للانتماء لعقيدة غير عقيدة الإسلام" .و يوم أن انبعث الإصلاح الديني لم يعد في الوقت متسع لمهادنة الانحراف فيه، ولا في الصدر سعة للمحاورة والمهادنة.

ولم تقتصر هذه الثورة العارمة من الشعراء على المستعمر فحسب، بل مستأيضا أدعياء الدين :من مرابطين وأولياء وطرقيين . والشاعر في هذه القترة كان يتأمل واقع المجتمع وما استشرى فيه من أدواء محاولا إصلاحه من زاو ية الدين، فتراه يذكر في كل مناسبة بأن الرجوع إلى القيم الروحية واقتناء أثر السلف الصالح هو سبيل النجاة.

وخير ما يمثل لنا هذه الظاهرة النموذج الشعري اللاّحق الذي نقدمه من قصيدة " **علام نلوم الدهر "لرمضان حمود**، حيث أنه يصور لنا - كما سيأتي – الحالة المزر ية التي آل إليها المجتمع الجزائري آنذاك، فهو يرفض التواكل و يعده ضعفا ويحث على الأخذ بالأسباب، إنه يصرخ في وجه المتقاعسين المستكينين الذين يرجعون كل شيء إلى قضاء اللهّٰ وقدره !كما يلوم الإمّعة الذي لا ينهض بعزائمه ويسلم بما يفعله الآخرون، يقول رمضان حمود:

علام نلوم الدّهر واللهّٰ عادل ... وننسب للإسلام ما هو باطل
ونملأ وجه الأرض رطبا و يابسا ... بكاء وهل تجدي الدموع الهواطل
ونجزع للمكروه من كل حادث ... وما ذاك إلا ما جنته الأنامل
فلن يظلم اللهّٰ لعباده بحكمه ... ولكن كفر المرء للمرء قاتل
ونزعم أنا مسلمون وديننا ... تعيث به الأهواء والكل ذاهل

هكذا تبقى هذه المقطوعة شريطا سينمائيا يعرض علينا في أي وقت نشاء، يوضّح لنا واقع الإنسان الجزائري المغلوب على أمره، كما يوضح حقيقة الشاعر الجزائري الغيور على وطنه ودينه .ويبقى جوهر هذه المقطوعة المستنبط من الإسلام هو جوهر القصائد الدينية الأخرى خلال هاته الفترة والجدير بالملاحظة أن فترة منتصف الثلاثينات كانت تزخر بالشعر الديني ومرد ذلك يرجع إلى الوعي العام على الصعيدين الديني والسياسي، وقد أمتد هذا الأخير إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية، وكان إيذانا باندلاع الثورة التحرير ية الكبرى.

وخير ما نستدل به على هذا التحول السريع الأبيات التالية من قصيدة "حزب مصلح "لمحمد العيد آل خليفة، وهي قصيدة طويلة نظمها بعدما رأى ما للمؤتمر الإسلامي - الذي عقد بعاصمة الجزائر في منتصف الثلاثينيات من تأثير بالغ على المستعمر، فبعد اغتيال أحد مناوئي جمعية العلماء المسلمين وهو المفتي" ابن دالي محمود كحول "ألصقت التهمة بأحد أعضاء الجمعية وهو الشيخ الطيب العقبي" الذي زجّ به في سجن" بربروس "مع السيد" عباس التركي "أحد أعضاء الجمعية، هذه الحادثة التي صادفت ميلاد المؤتمر الإسلامي قد هزت أعماق شاعرنا فراح يستبشر بالنصر من جميع جوانبه، يقول محمد العيد آل خليفة:

سر مع التوفيق فهو الدليل ... حصحص الحق وبان السبيل
عاطني السرّاء كأسا بكأس ... واسقينيها إنّها سلسبيل
زال عن موقفنا كل ريب ... فهو كالمرآة صاف صقيل
إنّ قوما بالدّم اتهمونا ... وزرهم يوم الحساب ثقيل
أوردونا موردا مستراب ... طعمه مرّ المذاق وبيل
ابتلونا بالأذى فصمدنا ... للأذى والصّامدون قليلُ
ما شعرنا، يعلم اللهّٰ، ... حتى جاءنا أنّ" ابن دالي "قتيل

فإذا" العقبي "وهو وحيد موثق في" بربروس "عليل

من يقل لا تأمنوا الغدر حسبنا اللهﷻ ونعم الوكيل

نستشف مما سبق، أن الحدث السياسي الذي من أجله نظمت القصيدة السابقة قد انصهر في بوتقة الدين وتعاليمه، هذا ما نلمسه بشكل بينّ في مطلع القصيدة، فقد جعل الشاعر من توفيق اللهﷻ دليلا قاطعا وحقا واضحا، وهذا ما نلحظه في الختام - أيضا - حيث إنه متشبث بروح اللهﷻ، فاللهﷻ حسبه ووكيله، فالشعر الديني في هذه المرحلة كان مفعما بحرارة الفكرة وشروقها، وقد تعدّى رتابة المناسبات إلى حركتها، وقد ربط الأحداث بأسبابها. ولقد دخل الشعر الديني الجزائري الثورة غير محتشم .فهو لم يعد ينطلق من المناسبة الدينية - المميزة له - وجعل منها سبلا إصلاحية، وإنمّا انصهرت هذه الأخيرة في أجواء الحدث، غير أن هذا لم يمنعها من تحريك المغزى العام للقصيدة، والسماح لها بالذهاب بعيدا لمعالجة المستجدات اليومية، فالدين الإسلامي في هذه الفترة تناثر داخل القصيدة و يقي عمله يسري تحت غطاء الثور ية، يقول مفدي زكر يا:

يا مهرجانا بأهل اللهﷻ مزدهرا اللهﷻ أكبر !هذا اليوم مشهود

اليوم يا ناس، يوم البعث فاستبقوا للصالحات، فما في الخير تحديد

يا جيرة اللهﷻ مدّوا للعطاء يدا يا جيرة اللهﷻ في سبيل العلي جودوا

يا جيرة اللهﷻ لبُوّا أصوت أمتكم يا جيرة اللهﷻ، في أوطانكم ذودوا

من يشتري الخلد؟ إن اللهﷻ بائعه فاستبشروا وأسرعوا فالبيع محدود

و يقول أيضا:

فلا نرضى مساومة وغبنا ولا نرضى لسلطتنا اقتضابا

ولن نرضى شريكا في حمانا ولو قسمت لنا الدنيا منابا

فالشاعر في هذين البيتين يجسد فكرتين أساسيتين في قاموس الأخلاق الإسلامية هما:

- 1العزة لن تكون إلا للهﷻولرسوله وللمؤمنين.

- 2الدعوة إلى الابتعاد عن الطمع والإغراء.

- ثانيا: الرواية الدينية الجزائرية المعاصرة:

1- نظرة موجزة حول الرواية الجزائرية الدينية المعاصرة:

كان من المسلَّم أن آثار وأصول الرواية الدينية المعاصرة في الجزائر، ترجع لا محالة إلى تلك الروح الدينية والاسلامية التي يمتاز بها الأديب الجزائري، وكذا نمو الحضارة نموا ينجلي إلى امتزاج ثقافات فكرية إسلامية تلاقت فأحدثت وصنعت لدى الأديب والكاتب الجزائري، وقفة تأملية تحمل في طياتها حضارة ثقافية إسلامية جسَّدها في كتاباته الروائية بكل ما تحمله الكلمة من معنى، لذلك نجد أن الكتاب والروائيون البارزون في هذا اللون الأدبي، قد أمدوا الكثير عما سواهم، فانتشرت أواصره إلى رقعة المغرب العربي وحتى المشرق العربي، وأصبح لها بعدا خاصا يطبعها فكان لها الأثر الأكبر، فلقد ذهب ذلك الروائي لأن ضمنها سياقا متميزا عن باقي الفنون النثرية الأخرى، بأن وظف النصوص والرموز الدينية.

فغذت الرواية الجزائرية الدينية أو الاسلامية تضع لها الركائز الهامة وذلك بتوظيفها للنصوص الدينية، فجُعلت منها قضية مثلى من القضايا المثارة في الساحة الأدبية والفكرية في العديد من أقطار العالم العربي وحتى الغربي منه، لذلك وباعتبار أنها اتسعت أهدافها إلى أن صارت تعالج قضايا اجتماعية معاصرة وأضحت مصدرا أساسيا يبدع فيه الكاتب بتبيانه لتعاليم الدين وأسسه إضافة

إلى توظيفه للقصص الديني، فنظرتها ومصدرها الأوّل هو القرآن الكريم، وبإعجازه البليغ، وبهذا ارتقى هذا اللون الأدبي وتشعبت ضروبه وأقسامه وشعبه وراح يرسم سياقا ذا بعد ديني يتجلى أساسا في توظيفه النصوص الدينية.

2- مؤثرات تطور الرواية الجزائرية الدينية المعاصرة:

أ-تأثير مبدأ الواقع لدى الأديب الجزائري:

لعل المؤثر الأول الذي دفع الأديب الجزائري إلى الكتابة القصصية الدينية هو المبدأ الواقعي الذي له تأثير واضح ومتباين قادته إلى التوغل في عمق المجتمع، ور د الاعتبار للفرد الجزائري ذلك أنه عايش عدة أحداثٍ، كان لها الوقع المؤثر في تلك الكتابات، فموازاة مع هذه الأحداث التي تندرج في نظر الأديب إلى التيار الواقعي ذلك أنها تص وِرُ الوقائع بمتجلياتها الكاملة، فمثلا نرى أن الثورة الجزائرية، كانت قد أخذت النصيب الأوفر من الأعمال الروائية الواقعية لدى الكاتب الجزائري، باعتبار أنها هيَّأت الفكر ونظرت إلى ضرورة نشر الوعي لدى الفرد والمجتمع للظفر بالحرية واستقلال الجزائر، فهكذا عمل الأدباء الجزائريون إلى تنويع المقاصد من خلال بلوغ الهدف الأسمى وهو نشر الوعي الثقافي والفكري والديني في الأوساط الاجتماعية، ومن ناحية أخرى فقد حافظت على التراث والأصالة، فانتهجت بذلك سبيلا يخدم ويميل إلى الوعظ وجعل التوعية بأمور الدين أساسا يعمل على إصلاح المجتمع بعامته والفرد بخاصةٍ.

فالواقع أن الأديب أو الروائي الجزائري كان يكثر وينوع من طرائق الوعظ والإرشاد، ليفتح بذلك مجالا للوعظ الديني الذي مزج فيه بين الواقع المعاش في الحياة الاجتماعية للفرد وبين الأصالة والتراث بما فيه المحافظة على تعاليم الدين الإسلامي الحنيف، فالرواية الجزائرية استوحت مواضيع نجدها تدور حول الذود عن الوطن وتمجيد نضال الثوار والثورة الزراعية وقضايا المرأة الجزائرية في ظل ظروف كانت تعايشها في فترات الخمسينات إلى الستينات والسبعينات وصولا إلى التسعينات حتى يومنا هذا.

ب-المبدأ والوازع الديني لدى الأديب الجزائري:

عمد الأدباء الجزائريون لأن يقع اختيارهم لمثل هذا التوجه الديني في الأدب باعتبار الإسلام يتغلغل في حياة أفراده فإن مسألة التزامه-في الأدب-يجب أن تكون محلَّ تقدير، فالأساس الديني هو التعبير عن الوازع أو المبدأ الخالص لهذا التوجه عند الأديب أيا كانت ثقافته أو هويته، لذلك فارتباط الأديب الجزائري بمقومات الدين الإسلامي جعل الفنون النثرية كفن الرواية يحظى بتقدير جاد، كون أن الفرد الجزائري له دافع قوي لأن يحافظ على أصالته وهويته وشخصيته الدينية.

ذلك أن الروائي الجزائري قد نهج منهجا سوايا بأنه تأثر بالقصص القرآني، إذ تجلت أعماله تستفيض فيضا متباينا، من السياق القرآني ومن معانيه التفسيرية، وعبره وحكمه الخالدة، كما توجه الروائي الجزائري إلى اتخاذ الحديث النبوي الشريف الذي لا يكاد يخلو من مقاصد تنجلي ضمن ما جاء به دستور الإسلام "القرآن الكريم"،فالقصص القرآني قد سار وفقه الأديب وقدَّم للقارئ عملا قصصيا مستمدا من مواعظ وقيم وردت في القرآن الكريم والسنة النبوية، فالدين الإسلامي متكامل الأحكام والقيم، منهج كل مسلم كتابه ودستوره الأول القرآن، والذي شغل الكثير من الفقهاء والعلماء وحتى الأدباء بشتى أجناسهم ونِّحلهم ومختلف أصولهم بذاك الأسلوب البليغ المعجز.

ملاحظة:

أرجو من الطلبة الأعزاء الاطلاع على النماذج الشعرية والروائية التي تناولناها في المحاضرات.

بالتوفيق للجميع.